الباب الخامس

عصر الحجابة وقيام دولة بني عامر

الفصل الأول

هشام الثانى ٣٦٦ — ٤٠٣ هـ — ٩٧٦ — ١٠٠٩ م

كان فى الثانية عشر من عمره ، لما ولى الخلافة والملك بعد وفاة أبيه . وكان موالى أبيه و بخاصة طائفة الخصيان الصقالبة ، يستمتعون بنفوذ لا حصر له فى الدولة . و بلغ الغرور باثنين منهم ، فائق وجوهر ، أن ظنا أن لهما وحدهما حق تقرير مصير وراثة العرش · ونظرا لصغر سن هشام ، كان لابد من إقامة الوزير المصحفى وصيا عليه ، وهذا يؤدى إلى حرمانهما من النفوذ والسلطة ، فضلا عن مخالفته لما ألفه العرب ، الذين لا يميلون إلى حكم الوصاية .

مؤامرة الخصيان واحباطها :

قرر فائق وجوهر فيما بينهما أن يقتلا الوزير المصحفى ، و يناديا بالأمير المغيرة عم هشام خليفة للمسلمين فى الاندلس ، حتى يصبح مدينا لهما بعرشه فيطلق يديهما فى تصريف شئون الدولة . ثم رأيا من الحكمة أن لا يسفكا دما بريئا ، وأن يطلعا المصحفى على مشروعهما أولا . فاستدعياه وأنبآه بما عزما عليه . فاظهر الموافقة والاستحسان ، وخرج من حضرتهما فاستدعى نفرا من خاصته ،

منهم ابن أخيه هشام ، وابن أبى عامر ، وزياد بن الافلح أحد موالى الحكم الثانى ، وقاسم بن محمد أحد كبار القواد ، واستدعى أيضا فريقا من قواد الجيش ممن يثق بهم ، فأخبرهم بما عزم عليه الخصيان . فاتفقوا على افساد مشروعهما بقتل المغيرة قبل أن يعلم بوفاة أخيه . ولما سأل المصحفى عمن يقبل القيام بهذه المهمة ، تقدم ابن أبى عامر وتعهد بانفاذ ما أقرته الجماعة . ثم سار لوقته مع القائد ومائة من الحرس الى قصر المغيرة فأتم مهمته ، ولم ير المصحفى من الحكمة أن يوآخذ الخصيين فتركهما مؤقتا . واستدعى فى الصباح أهل قرطبة إلى قصر الخلافة وجعلهم يجددون البيعة لهشام . وهكذا تم الأمر ونودى بهشام الثانى خليفة ولقب بالمؤيد بالله . وقامت حكومة الوصاية ، وفيها كان المصحفى حاجبا للخليفة ، وابن أبى عامر وزيرا . ولارضاء الشعب ، أشار ابن أبى عامر على المصحفى أن يلغى ضريبة الزيت ، التى كانت تضايق الفقراء كل المضايقة . ونشر ابن أبى عامر بين سواد الشعب أنه هو الذى أشار بالغاء تلك الضريبة ، فأصبح محبوبا من الشعب معدودا نصيرا للفقراء ، وما لبث الخصيان أن تآمرا على المصحفى وابن أبى عامر ولكنهما عزلا فائقا وطرداه من القصر . أما جودر فاستقال ، وفرض المصحفى عليهما من المغارم ما تركهما فى فاقة وعجز تام عن الكيد . وقتل ابن أبى عامر الدرى أحد أنصار فائق . وفرح الناس بالتخلص من هؤلاء الظلمة المفسدين

طموح ابن أبى عامر و بدء ظهوره :

كان مسيحيو الشمال قد أخذوا يشنون الغارات على حدود الدولة الاسلامية منذ أن علموا بمرض الحكم . فلما أتاهم نبأ وفاته ، ازدادوا جرأة واجتاحوا كثيرا

من بلاد الأندلس ، حتى وصلت غاراتهم إلى أبواب قرطبة . ولم يكن المصحفى لينقصه المال ولا يعوزه الجند لصد غاراتهم . ولكنه لضعفه وعجزه ترك حبل الأمور على غاربها . فاستاءت الملكة صبح وأخبرت ابن أبى عامر نبأ فزع الناس من جراء تهجم المسيحيين ، فأسر اليها أنه يستطيع تأديبهم إذا ولى قيادة الجيش ووافق المصحفى والوزراء على تقليده القيادة وإعطائه مائة ألف دينار ينفق منها على الجند . فزحف بجيش من خيرة الجند ، واجتاز الحدود فى فبراير سنة ٩٧٧ م وحاصر حصن الحمى الواقع شمال سلمنقة واستولى عليه ، ثم عاد مثقلا بالأسلاب والغنائم ومعه عدد كبير من الأسرى . فأحدث النصر رنة سرور فى قرطبة ، لأن الجيش قد هاجم العدو فى عقر داره وعاقبه على بغيه وعدوانه ، وازداد الشعب حبا واجلالا له . و بفضل ما أنفقه على الجند من أموال وهدايا ، توثقت علاقته بهم وهكذا ازداد ابن ابى عامر أنصارا وأعوانا بين طبقة العامة والمحكومين ، ومهد لنفسه سبيل تحقيق مطامحه وأمانيه

سقوط المصحفى :

كان نفوذ جعفر بن عثمان المصحفى يزداد ضعفا كلما علا شأن منافسه ابن أبى عامر . وكان لاوجه للمفاضلة بينهما فى الذكاء والهمة و بعد النظر . نشأ المصحفى من أصل وضيع وكان والده من البربر . أما هو فكان أديبا شاعرا وأكسبته هذه المؤهلات حظوة لدى الحكم الثانى فعينه كاتبا فى قصره ، ثم قائدا لحرسه ثم حاكما لجزيرة ميورقة ، ثم وزيرا . وكانت مواهبه عادية . فكانت تعوزه القدرة على الفصل فى المسائل الهامة ، وابتكار حل لكل معضلة مستغلقة ، فكان

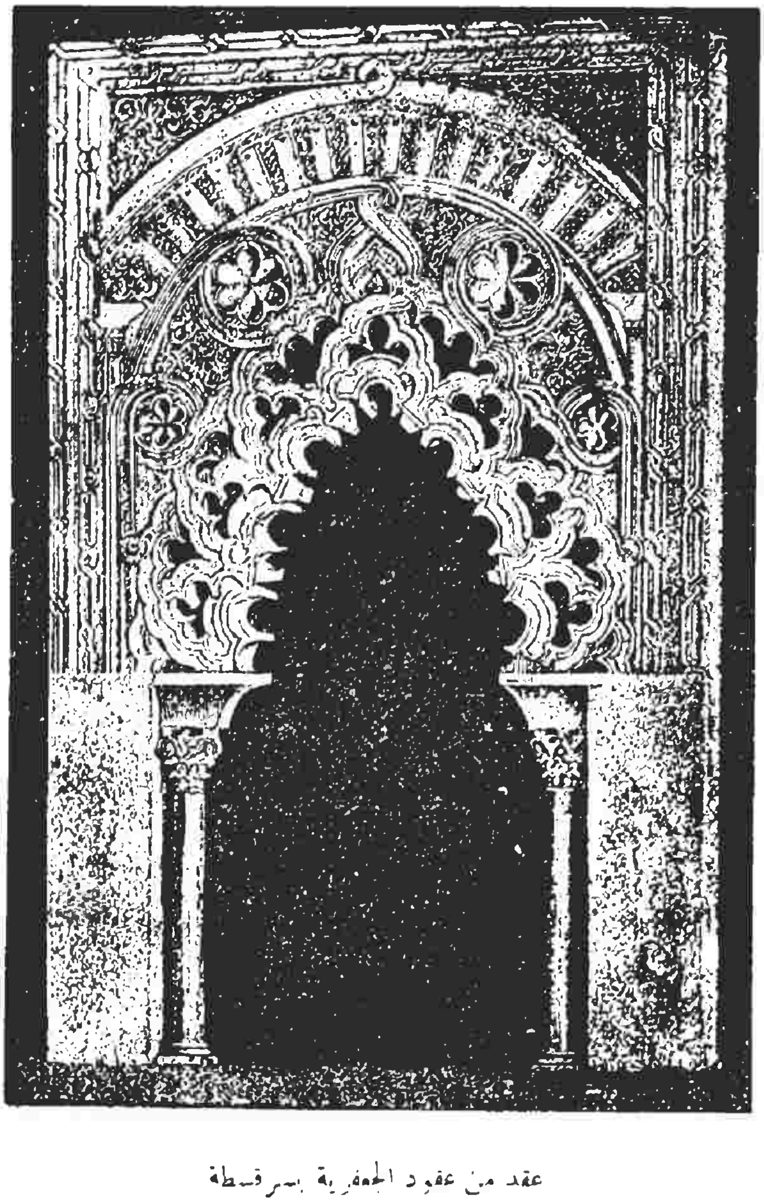

عقد من عقود الجعفرية بسرقسطة

يلجأ إلى ابن أبى عامر فى المشاكل العويصة . وهو الذى قاوم خصيان القصر فيما انتووه من نقل الخلافة إلى الأمير المغيرة ، وأقام حكم الوصاية ، وجعل نفسه حاجبا للخليفة ، باشارة ابن أبى عامر . وكان متصفا بما يتصف به كل حديثى النعمة من صلف وغرور نفرا منه الناس ، كما كان يغتال أموال الدولة ، ويولى أقاربه المناصب التى ليسوا أهلا لها ، فأوغر ذلك عليه صدور القوم ، مما شجع ابن أبى عامر على السعى فى اسقاطه والحلول محله

أخذ ابن أبى عامر يدس لزميله المصحفى لدى الملكة صباح ، وينتهز كل فرصة لاطلاعها على أخطائه بعد المبالغة فيها ، وفى الوقت نفسه يظهر له كل مودة واخلاص . لهذا لم يكن المصحفى يحسب أن سيناله من ناحيته شرا ، وانحصرت مخاوفه فى القائد غالب حاكم الحدود ، لكثرة ماله وجنده ولمجاهرته بأنه أحق منه بمنصب الحاجب . فعزم ابن أبى عامر على زيادة العداء بينهما ، واستصدر من الملكة صباح أمرا بتعيين غالب قائدا للجند ، ومنحه لقب ذى الوزارتين . ووافق المصحفى على ذلك ظنا منه أنه بذلك يرضى غالبا و يكسب مودته . ولكن ابن أبى عامر كان قد بيت النية على الانضمام إلى غالب والعمل معه على اسقاط المصحفى . وتمهيدا لذلك خطب اسماء ابنة غالب لنفسه ، بعد أن كان قد خطبها المصحفى لابنه عثمان وأفسد ابن أبى عامر على المصحفى تدبيره . ولما عاد ابن أبى عامر من غزوة الحدود منصورا منحه الخليفة لقب ذى الوزارتين ، وحل موعد زواجه بأسماء فدفعت صباح وابنها هشام نفقات العرس ، وعين غالب حاجبا للخليفة . وأصبح سقوط المصحفى أمرا محتوما ، وفى مارس عام ٩٧٨م عزل الخليفة المصحفى وأولاده وأقاربه من مناصبهم ، بعد أن قبض عليهم وصودرت أموالهم وأملاكهم وحوكموا بتهمة اختلاس أموال الدولة ، وبيع قصر المصحفى وظل فى السجن خمسة أعوام

حتى مات خنقا . وعبثا حاول المصحفى وهو فى السجن استعطاف خصمه ، فلم تلق اشعاره سوى قلبا لايرق ولا يلين

ومما كتبه المصحفى ذات مرة لابن أبى عامر :

هبنى أسأت فأين العفو والكرم إذ قادنى نحوك الاذعان والندم

فأجابه المنصور :

نفسى إذا سخطت ليست براضية ولو تشفع فيك العرب والعجم

الفصل الثانى

قيام دولة بنى عامر

المنصور محمد بن أبى عامر

كان عزل المصحفى إيذانا بتولية ابن أبى عامر حاجبا مكانه ، فاصبح له وحده غالب الكلمة العليا فى البلاد . ولم تفلح مؤامرة جودر ، وعبد الرحمن بن المنذر قاضى القضاة والرمادى الشاعر ، ومن لف لفهم من القضاة ورجال الأدب — وكلهم خصوم ابن أبى عامر وحساده — على قتل هشام الثانى وتولية عبد الرحمن بن عبيد الله ابن عبد الرحمن الناصر . وكان زياد بن الأفلح حاكم قرطبة على علم بالمؤامرة ولكنه تغاضى عن المشتركين فيها ، ووصل إلى علم ابن أبى عامر مايكيده له المتآمرون فقبض على زعمائهم وحاكمهم ، فكان جزاؤهم الصلب . وتقرب ابن أبى عامر إلى الفقهاء فأمر بأحراق كتب كثيرة من كتب الفلسفة والفلك ، مما كان بمكتبة الحكم الثانى ، ونسخ القرآن بيده ، وكان يأخذ النسخة معه فى كل أسفاره

ولما اشتهر ابن ابى عامر بالورع والتقى التفت الى تربية الخليفة هشام حتى ينشأ ميالا إلى اللهو والدعة ، ولاتتكون عنده أية صفة سامية قد تؤهله إلى السيادة والتسيطر . فعهد بذلك الى الزبيدى ، وجعل تعليمه قاصرا على القرآن والقيام بالفرائض . وأمر ببناء الزاهرة على الضفة اليمنى من نهر الوادى الكبير لتكون مقرا للدواوين الحكومة ، ابعادا لهشام عن الاتصال بشئون الدولة . واحاطه

بالعيون والارصاد ، وأحاط قصره بالأسوار العالية ، وحرم على الناس الاقتراب منه ، فأصبح الخليفة شبه سجين ، لا اتصال له بالعالم الخارجي ، إلا عن طريق حاجبه ابن أبى عامر . وأراد التخلص من غالب لينفرد بالحكم ، فألف جيشا من البربر المرتزقة ، من زناته وصنهاجة ومن مسيحى الشمال . وكان نواة جيشه ٦٠٠ جندى بقيادة أمير من أمراء المغرب اسمه جعفر ، وفريق من مسيحى الشمال دفعتهم الحاجة إلى الدخول فى خدمة ابن أبى عامر ، ضاربين صفحا عن كل الاعتبارات القومية والدينية . واكتسب ابن أبى عامر ولاء جنده المسيحيين بكرمه وحسن عطفه . فقد بذل لهم الأجور العالية وأسر قلوبهم بعدله ورفقه ولينه ، فجعل يوم الأحد اجازة عامة ، وكان يرقى كل مخلص فى خدمته ، فأصبح الجند خاضعين لأمره

النزاع بين غالب وابن أبى عامر :

استمر ابن أبى عامر فى استعداده دون أن يظهر لحميه تغيرا فى المودة . ولكن غالب لم تخف عليه حقيقة نوايا صهره ، فعنفه على ختله وغدره ، وزادت المشادة فاستل سيفه وطعن به ابن أبى عامر طعنة غير قاضية . فألقى هذا بنفسه من النافذة ، وكان ذلك بداية الحرب بينهما . نادى غالب بنفسه نصيرا للخليفة وجمع جنده ، وأمدته ليون بجيش صغير ، وقابله ابن أبى عامر بجنده أيضا ، وانتهت المعركة بهزيمة غالب وقتله عام ٩٨١ . وأراد ابن أبى عامر أن ينتقم من ليون فغزا بلادها وحاصر قلعة سموره ولما لم يستطع الاستيلاء عليها خرب كثيرا مما حولها ، وقتل ٤٠٠٠ من المسيحيين . فثارت ثائرة مسيحى الشمال وتجمعت جيوش روميرو الثالث ملك ليون وجارسيا ملك نفارا وجارسيا فرناندز أمير قشتالة

وقابلوا ابن أبى عامر فى موقعة روندة فهزموا شر هزيمة . و بعد ايغال جنوده فى بلاد ليون عاد إلى قرطبة ظافرا ومعه عدد كبير من الأسرى ، وقبل دخوله أياها لقب نفسه بالمنصور ، وهو من ألقاب الخلفاء . وهنا بلغ المنصور ذروة السودد ، ولم يبق له من يخشى بأسه سوى جعفر قائد البربر المغاربة ، فأراد التخلص منه رغم حسن بلائه واخلاصه فى خدمته ، فسلط عليه من قتله عام ٩٨٣

المنصور يغزو المسيحيين :

شبت ثورة فى مملكة ليون ضد ملكها روميرو بعد ما اجتاحها جند المنصور عام ٩٨١ ، ونادى أهل جليقية بالأمير برمودو ابن عم روميرو ملكا عليهم ، فاضطر روميرو بعد هزائم متكررة أن يفر إلى الحدود و يلتمس العون من المنصور ، ولكن برمودو عرض على المنصور جزية سنوية نظير ايثاره هو بالمساعدة . فأمده المنصور بكتائب من جيشه ، وأصبحت ليون تدفع جزية سنوية للخلافة الأموية

وساق المنصور جيوشه بعد ذلك إلى امارة قطلونيه فى عام ٩٨٥ م وأخذ معه فى حاشيته ثمانين شاعرا لوصف غزواته وتخليد انتصاراته . فوصل إلى برشلونة فى أول يوليه من تلك السنة وهاجمها . فسقطت فى يده بعد حصار دام خمسة أيام . واستباح المدينه لجنده ، فقتلوا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها ثم أشعلوا النيران فيها

استرجاع المغرب الأقصى :

لم يكد يستقر المنصور فى قرطبة بعد غزوته الثالثة والعشرين حتى استرعت الحالة فى المغرب الأقصى انتباهه . ذلك أن بلادا كثيرة منه كانت قد خلعت

عنها نير الفاطميين مثل فاس وسجلماسة . ولكن ظهرت فوق مسرح الحوادث شخصية كانت منسية طوال السنين . ذلك أن الحسن بن قنون الادريسى كان قد استسلم لغالب وطلب الأمان على عهد الحكم الثانى ، وأحضره غالب معه إلى قرطبة ، فظل مقيما بها حتى أذن له الوزير المصحفى بالاقامة فى تونس ، بشرط أن لا يقرب المغرب الأقصى . ولكن الفاطميين أمدوه بالمال والجند وارسلوه إلى المغرب لاعادته إلى سلطانهم . فلما علم المنصور بذلك أسرع بارسال جيش هزمه فاستسلم ابن قنون مرة أخرى ، على ان يرسل إلى قرطبه للاقامة فيها كما كان من قبل ولكن المنصورضرب عنقه فى ا كتوبر عام ٩٨٥م . وانتقدالناس هذا الغدر وسخطوا على المنصور من أجله واتهموه بالظلم والقسوة . فكان لابد من استرضائهم بعمل عظيم

لذا أمر المنصور بتوسيع مسجد قرطبة واشترى البيوت المجاورة بأضعاف اثمانها . وكان يقول للناس « إن الخزينة عامرة بالأموال التى غنمناها من النصارى اعدائكم » واستخدم الأسرى المسيحيين فى حفر الاساس ونقل الحجارة . فقال الناس اعلى المنصور كلمة الله حقا واعز دينه» . وكثيرا ماشمر عن ساعده واشتغل بنفسه مع العمال ليعمر مسجد الله . وهكذا استعاد منزلته فى النفوس

تجدد الحرب مع مسيحى الشمال :

كان برمودو الثانى قد استعان بالمنصور ضد روميرو الذى طرده الشعب من ليون لقسوته وظلمه، فأمده المنصور بجيش ظل مقيما عنده لحمايته من اعدائه . ولكن الجند عاملوا اهل ليون معاملة المحكومين، واشتكى برمودو من ذلك مرارا الى المنصور فلم تجد شكواه . فانفجر غيظه اخيرا وطرد المسلمين من بلاده ، ورأى المنصور

ضرورة اعطاء برمودو درسا قاسيا لا ينساه . فزحف بنفسه على ليون ، كما أنه فرح بتجدد الحرب ، لينسى الناس شئون بلادهم الداخلية ، وليتسنى له اكتساب نصر وفوز جديدين . واستولت جيوش المنصور على بلاد ليون الواحدة بعد الأخرى ، وأخذت تدمر الحصون وتخرب المدن ، واجتاحت أنحاء الدولة كالسيل الجارف ، فلم تترك مدينة ولا حصنا ولا ديرا ولا بيعة ولا قرية

وحاصر المنصور مدينة ليون وفتح المسلمون ثغرة فى سورها ، ثم دخلوها عنوة وذبحوا كل سكانها ، ومن بينهم قائد الجند المدافعين عنها ، وكان قد أتى به مريضا محمولا على محفه ، ولم يتركوا فيها حجرا على حجر وتركوها قاعا صفصفا . وكان ذلك سنة ٩٨٧ م . وكذلك فعل المنصور بسموره ، فدخل كل أمراء مملكة ليون فى طاعة المنصور ولم يبق لبرمودا إلا الثغور الواقعة على الشاطىء

تآمر عظماء قرطبة ومعهم عبد الله بن المنصور :

عاد المنصور إلى الزاهرة فكشف مؤامرة خطرة على رأسها ابنه عبد الله ، وعبد الرحمن بن المطرف التجيبي حاكم الحدود ، الذين اتفقا على قتل المنصور واقتسام البلاد فيما بينهما ، فيكون ابن المطرف حاكم الشمال ، وعبد الله حاكم الجنوب . واشترك معهما هذه المؤامرة عدد كبير من رجال الدولة ، ومن بينهم عبد الله بن عبد العزيز حاكم طليطلة . فبادر المنصور باحباط تلك المؤامرة ، مستعملا كل دهاء وسعة حيلة . وكان المنصور يتهيأ لغزو قشتالة ، فعزل عبد الرحمن التجيبي بحجة اختلاسه اعطيات الجند ، وعين ابنه يحيى مكانه حتى لا يغضب بنى هاشم ، ثم عاد فقبض عليه وحاكمه وقضى باعدامه سنة ٩٨٩م ، وأخذ المنصور يسترضى ابنه عبد الله . ولكن هذا لم ينخدع بعفو أبيه بل فر إلى صفوف

جارسيا فرناندز أمير قشتالة ، وحماه جارسيا رغم تهديد المنصور ووعيده مدة عام ولكنه أثناء هذا العام فقد حصونا كثيرة ، ولقى هزيمة بعد هزيمة ، فاضطر إلى قبول الصلح وتسليم عبدالله ، فقتله المنصور سنة ٩٩٠ م

وللانتقام من جارسيا فرناندز أمير قشتالة ، حرض المنصور ابنه سانكو على الثورة ضد أبيه . فثار سانكو سنة ٩٩٤ م ، ووعده المنصور بالمساعدة . وللتعاون معه غزا المنصور قشتالة ، وأوغل فيها . ولم يلبث أن أسر جارسيا على شاطىء نهر دورو . ومات جارسيا بعد ذلك بخمسة أيام متأثراً من جراحه . فنادى المنصور بسانكو أميراً على قشتالة ، وتعهد سانكو بدفع جزية سنوية للدولة الاسلامية .

وانتقل المنصور إلى ليون فى خريف سنة ٩٩٥ م ليعاقب ملكها برمودو على إيوائه عبدالله بن عبد العزيز حاكم طليطلة وأحد المتآمرين . وكان برمودو قد ضعف سلطانه لانتقاض أمراء دولته عليه . فاستولى المنصور على مدينة استرقة ، التى كان برمودو قد اتخذها عاصمة له بعد تخريب مدينة ليون . والتمس برمودو الصلح فقبل المنصور ، واشترط عليه دفع الجزية وتسليم سمورة ، وتسليم عبد الله وأدب المنصور أميرين مسيحيين آخرين ، ثم عاد إلى قرطبة ، فأمر بعرض عبدالله بن عبد العزيز على الجماهير مكبلا بالاغلال ، ثم ألقاه فى السجن فظل به حتى وفاة المنصور

المنصور يلقب نفسه بالمؤيد وهو لقب الخليفة :

كان قد مضى على المنصور زهاء عشرين عاما وهو الحاكم الحقيقى للبلاد . وفى سنة ٩٩١م خلع لقب الحاجب على ابنه عبد الملك ، الذى لم يكن قد جاوز الثامنة عشرة من عمره . وفى السنة التالية صار يوقع بخاتمه بدل خاتم الخليفة ، ولقب نفسه

بالمؤيد، وهو لقب الخليفة نفسه ، وفى سنة ٩٩٦ م سمى نفسه الملك الكريم والسيد
ولم يبق حائلا بينه و بين الخلافة إلا خوفه من الشعب لا من هشام ؛ ولا من الأمراء ، الذين قتل المنصور من كان يخشى بأسه منهم ، ونفى البعض واستنزف أموال الباقين

أما الجيش فكان معظمه من البربر ومسيحى الشمال المرتزقة والصقالبة . فهو فى يده وأطوع له من بنانه

ولم يكن الشعب قد رأى هشاما فى أية مناسبة من المناسبات . ولكنه كان ابن الخليفة الحكم الثانى وحفيد عبد الرحمن الناصر . فالشعب يحبه من هذه الناحية ، ولا يقبل أن ينتزع المنصور الخلافة منه . وكان هنالك أيضاً من يخشى بأسه و يحسب حسابه . وهى الملكة صباح. إذ كانت تكره المنصور. فأخذت تهيء ابنها لتولى الحكم بنفسه ، وأخذ هشام يغلظ فى القول للمنصور كلما قابله . ونشرت صباح رسلها يثيرون الشعب فى قرطبة ، وكاتبت القائد زيرى بن عطية فى بلاد المغرب ليعلن الثورة أيضا ، وأمدته بمال وفير فى أزيار من عسل ، نفيا للشبهات و بلغت هذه المؤامرة سمع المنصور ، فأمر بنقل بيت المال من قصر الخليفة ، واستصدر من الخليفة بقوة تأثيره ودهائه أمرا بأن ينوب عنه فى حكم البلاد وتصريف شئون الدولة ، وتفويضا له فى كل الأمور ، لعدم قدرة الخليفة على القيام بأمور الملك بنفسه . وأمضى على وثيقة التفويض الخليفة وكبار رجال الدولة والوزراء . كل هذا دون أن تعلم صباح. فكان وقع الصدمة عليها شديدا، مما جعلها تركن إلى العبادة وتنفض يدها من تدبير المؤامرات . وللقضاء على تدابير خصومه أظهر الخليفة هشاما الثانى للشعب، على جواد مطهم ومن حوله الوزراء وعلى رأسهم المنصور واجتاز

الركب الشوارع الممتلئة بالجنود ، فلم يحرك الشعب ساكنا ، ولم يتفوه أحد بكلمة نابية . ثم أرسل جيشا إلى المغرب بقيادة مولاه واضح لاخضاع زيرى ، وفى الوقت نفسه زحف بنفسه على مسيحى الشمال اظهارا لسطوته وقوة بطشه . وبالاتفاق مع حلفائه أمراء ليون ، أعد حملة على برمودو ، الذى كان قد انتهز فرصه ثورة زيرى فرفض دفع الجزية ، وتسمى هذه الحملة حملة سانتياجودى كومبوستيلا ويسميها العرب شانت ياقب ، نسبة إلى كنيسة فى مقاطعة جليقية ، كان يحج اليها مسيحو اسبانيا وايطاليا وفرنسا وألمانيا . وكانت أشهر كنيسة فى أوربا المسيحية بعد كنيسة القديس بطرس فى روما . ولم يكن قد وصل اليها من قبل جيش عربى قط . وفى يونيه سنة ٩٩٧ عاد المنصور إلى قرطبة على رأس جيش من الفرسان . واتجه إلى أوبرتو ، حيث كان أسطوله قد نقل المشاة والسلاح والمؤنة . ودخل المنصور بلاد الأعداء فخرب ودمر كل حصن لقيه ، وحمل جيشه كلى مالقيه من متاع . وأخيرا وصل إلى كنيسة سنتياجو فوجدها خاوية على عروشها . ليس فيها إلا راهب يتعبد ، فتركه فى عبادته ، وحافظ على قبر القديس . أما المدينة نفسها فدمرها تدميرا حتى أصبحت أثرا بعد عين . واجتاح المنصور كل المنطقة المجاورة حتى ثغر كورونه على المحيط الاطلسى فى أقصى شمال اسبانيا . وبعد أن بقى فى مدينة كومبوستيلا أسبوعا ، أمر بالعودة . وفى الطريق ودع حلفائه من أمراء الشمال المسيحيين ، بعد أن أحسن صلتهم ، وعاد إلى قرطبة ومعه عدد عظيم من الأسرى المسيحيين ، يحمل بعضهم فوق أكتافهم أبواب كنيسة سنتياجو ونواقيسها ، فأضيفت الأبواب إلى سقف المسجد الجامع ، وصنع من النواقيس مشاكى علقت فى صحن المسجد

وأما الحمله التى أرسلت إلى المغرب، فلم تلق نجاحا باهراً كالذى لقبه المنصور.

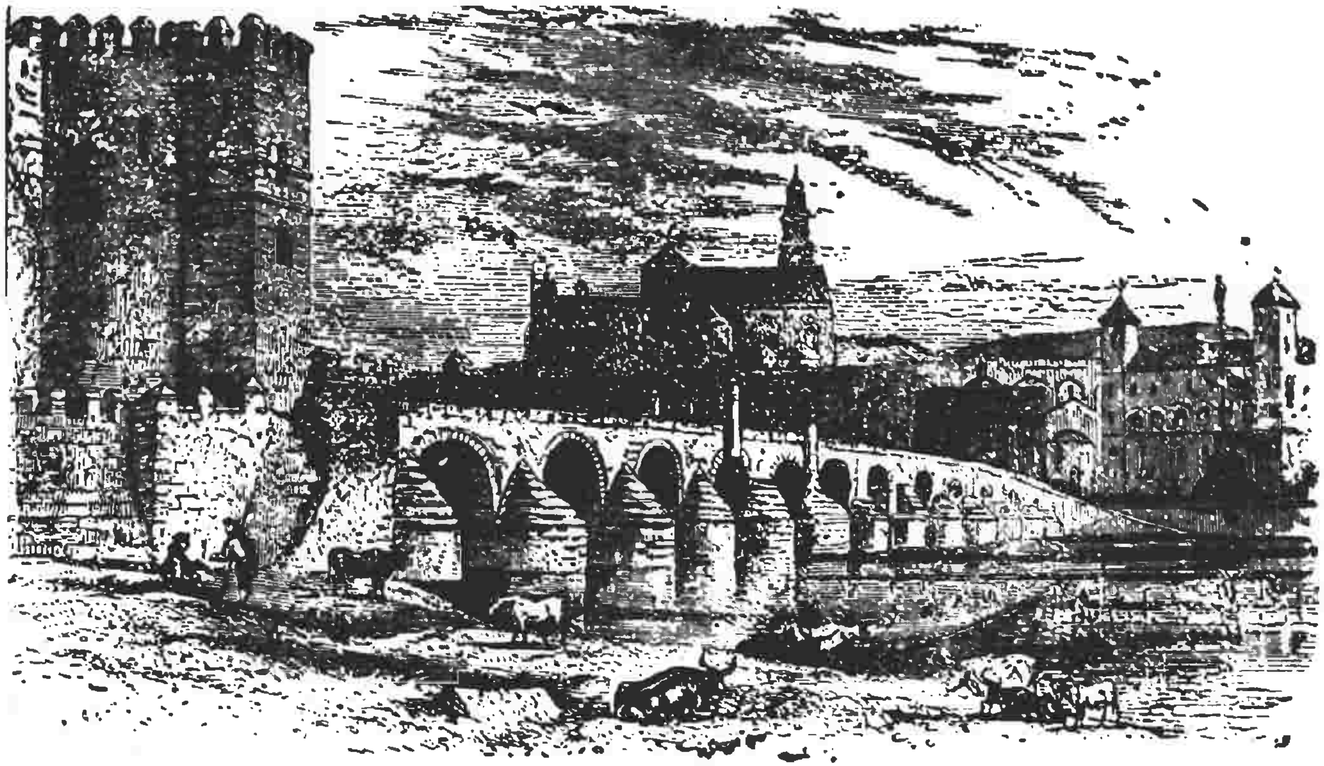

قنطرة قرطبة

إذ استولى واضح على ناقور ، وهاجم معسكر زيرى فى غسق الليل ، وألحق به خسارة فادحة ، ولكنه هزم بعد ذلك ، واضطر الى الاعتصام بمدينة طنجه ، حيث أرسل الى المنصور يطلب المدد . فأمده المنصور بجيش تحت قيادة ابنه عبد الملك المظفر ، نزل بسبته . وكان من أثر وصوله أن تقاطر أمراء البربر يقدمون الطاعة و يطلبون الأمان . ولما انضم جيش المظفر إلى جيش واضح زحف الجمع فلقى زيرى وهزمه فى موقعة فاصلة سنة ٩٩٧م، ومات زيرى سنة ١٠٠١م متأثراً بجراحه، وعادت بلاده الى سيطرة الخلافة الاسلامية

وفاة المنصور فى اغسطس سنة ١٠٠٢ م :

خرج المنصور فى أواخر أيامه لغزو قشتاله ، وكان يتمنى على الله أن يموت غازيا فى سبيله ، فاستجاب الله أمنيته . وكان دائما يأخذ معه كفنه كلما خرج غازيا . وكان قد اشترى أقطان الغزل وخيوطه من مال أغلته أرض أورثها عن أبيه ، ونسج القماش بناته بأناملهن ، حتى لايدرج فى كفن قد اشترى بمال غير حلال . وكان كلما خرج غازيا وعاد من غزوه ، نفض عنه وعثاء السفر واحتفظ بالتراب فى آنية . وأوصى أن يمهد له فى قبره من هذا التراب ، و يرش منه فوق جثته بعد دفنها . وفى آخر غزواته انتصر المنصور على قشتاله ، وهدم دير القديس ايمليان، كما هدم من قبل كنيسة سنتياجو فى جليقيه . وفى عودته شعر بمرض اشتدت وطأته عليه . فأحس بقرب المنية . واستدعى اليه على عجل ولديه عبد الملك وعبد الرحمن فأوصى عبد الملك بالاسراع للقبض على أزمة الأمور فى قرطبة وعهد الى ولده عبد الرحمن فى قيادة الجيش . واستدعى اليه أمراء جنده فودعهم الوداع الأخير . وما لبث أن صعدت روحه الى الرفيق الأعلى . ودفن بمدينة سالم

سنة ١٠٠٢ م بعد حكم دام سبعة وعشرين عاما كانت غرة فى جبين الأندلس. وبلغ المنصور من رفعة الشأن وسعة الملك بالأندلس مالم يبلغه ملك ولا خليفة قبله أو بعده. ونقش على قبره :

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه
تا الله لا يأتى الزمان بمثله أبداً ولا يحمى الثغور سواه

مثال من عدله وسطوته :

مما يروى عن عدله أنه وقف عليه رجل من العامة، ونادى «يا ناصر الحق ان لى مظلمة عند ذلك الوصيف الذى على رأسك» وأشار الى فتى صقلبى هو صاحب الدرقة، وكان له أفضل محل عند المنصور. ثم قال «وقد دعوته الى الحاكم فلم يأت». فقال له المنصور «اذكر مظلمتك». فذكر الرجل معاملة كانت جارية بينهما فقطعها من غير نصف. فقال المنصور «ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية». ثم نظر الى الصقلبى صاحب الدرقة وقد ذهل عقله وقال : «ادفع الدرقة الى فلان وساو خصمك فى مقامك حتى يرفعك الحق أو يضعك». ففعل ومثل بين يديه. ثم قال لصاحب «شرطته خذ بيد هذا الفاسق وقدمه مع خصمه الى صاحب المظالم لينفذ فيه حكمه» ففعل ذلك. وعاد الرجل اليه شاكرا. فقال له المنصور «قد انتصفت أنت فاذهب لسبيلك و بقى انتصافى أنا ممن تهاون بمنزلتى» وتناول الصقلبى بأنواع من المذلة وأبعده عن الخدمة.

ومما يروى عنه أنه تمرس ببلاد الشرك أعظم تمرس، حتى محاطفاتها وغادرهم صرعى. ووالى على بلادهم الوقائع. ومن أوضح ماحدث أن أحد رسله سار

فى بعض مسيرته الى غرسية (جارسيا) صاحب البشكنس (مقاطعة الباسك) فوالى فى اكرامه و بره واحترامه . وطالت به المدة حتى حل ذات مرة فى كنيسة من الكنائس . و بينما هو يجول فى ساحتها ، اذ عرضت له امرأة قديمة الأسر . فكلمته وعرفته بنفسها وقالت «أيرضى المنصور أن أظل رهينة الأسر ، ولى عدة سنين بهذه الكنيسة ، أذوق ذل الصغار ، ومرارة الحبس » . وناشدته الله فى انهاء قضيتها اليه . فلما وصل الى المنصور أعلمه بشأنها ، وحدثه بقصتها . فأخذ للجهاد من فوره ، وأصبح غازيا على سرجه ، وأتى غرسية بن شابخه صاحب البشكنس . فأخذته مهابته ، وأرسل اليه ارسالة . فعنفهم المنصور وقال لهم « قد عاقدنى ألا يبقى ببلاده مأسورة ولا مأسور . وقد بلغنى بعد بقاء فلانة المسلمة فى تلك الكنيسة فوالله لا أنتهى عن أرضه حتى أكتسحها » . فأرسل اليه المرأة فى اثنين معها وأقسم أنه ما أبصرهن ولا سمع بهن . وأخبره أن الكنيسة المعهودة قد بالغ فى هدمها تحقيقا لقوله فاستحيا المنصور منه وصرف الجيش عنه

نقد أعمال المنصور :

يرى المستشرق دوزى . أن المنصور استخدم فى خير بلاده تلك السلطة التى التى اغتصبها بوسائل قد نستنكرها ولا نقرها

ولو شاءت المقادير إن تنشئه ملكا متوجا ، لما كان فى مسلكه مايعاب عليه ولعد من خيار الملوك الذين يذكرهم التاريخ ، ولكنه نشأ فى بيئة متواضعه فاضطر لتحقيق مطامحه أن يشق لنفسه طريقا وسط آلاف المصاعب التى كانت تعترضه ومما يؤسف له ، أنه لم يكن يهتم كثيرا بمشروعية الوسائل التى كانت توصله إلى تحقيق أطماعه . ولاشك أنه قد حاز كثيرا من صفات العظماء ، ولكن اذا قسنا

أعماله بمقاييس خلقية عالية ، فمحال أن نشعر نحوه بذرة من الحب أو بقدر من الاعجاب

عبدالملك المظفر :

أسرع عبد الملك بن المنصور إلى قرطبة ، ليقبض على السلطة فيها ، و يخلف اباه فى منصب الحجابة . ولقب نفسه بالمظفر ، واتبع سنة أبيه فى الانفراد بالسلطة والحجر على الخليفة هشام ، وابعاده عن كل اتصال بشئون الدولة . وكان الخليفة قد ناهز الأربعين إذ ذاك ولكنه كان ضعيف الهمة ، فاتر العزيمة خاملا راغبا عن الاضطلاع بمتاعب الملك وأعبائه

وما كاد المظفر يستقر فى قرطبة لدى عودته حتى قامت فتنه نادى فيها الثوار بأن لاملك إلا هشام . وعبثا أرسل الخليفة الضراعة اليهم أن يتركوه وشأنه بعيدا عن هموم الملك ومشاغله ، ولم يزدهم توسل الخليفة اليهم إلا إصرارا ، وأخيرا فرق شملهم عبد الملك المظفر ، وساد الهدوء أمدا قصيرا ، أحبط المظفر فى أثنائه مؤامرة بزعامة الأمير هشام أحد أحفاد عبدالرحمن الناصر ، فقبض المظفر عليه وعلى كبار أنصاره أيضا ، وضرب أعناقهم فى ديسمبر عام ١٠٠٦ م

غزواته :

وفى عهده تألب عليه أمراء الشمال ، وتحالف على قتاله ملكا نفارا وليون ، فسار على نهج أبيه وغزا بنبلونة ، وهزم المتحالفين فى مواطن عدة ، فاعاد بحزمه وعزمه ما كان لأبيه من مهابة وروعة فى قلوب نصارى الشمال . لهذا يعد عهده ضمن عصر الأندلس الذهبي : عهد سلام ورغد ، وأعياد ومواسم على ما وصفه مؤرخو العرب

تطور أحوال البلاد العامة :

على أن البلاد كانت إذ ذاك قد تطورت وطرأ عليها تغيير بين :

١ — فالعصبة العربية كانت قد زالت واندثرت بقضها وقضيضها . ذلك لأن عبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبي عامر كانا يجدان في ادماج عناصر الأمة بعضها في بعض توحيدا الأواصرها، وأفلح سعيهما في تكوين شعب أندلسي نسي أفراده أحسابهم وأنسابهم الأولى

وكانت الحرب قد أفنت رؤساء القبائل من العرب ، وافقرت من خلفهم من ذراريهم ، واستطال عليهم كبار رجال البلاط والحاشية ،ممن ارتبطوا بالملوك برباط الولاء ، وسطع نجم الملكية وكشفت شمس ضيائها النبلاء والأمراء .

٢ — رفع المنصور شأن القواد البربر والصقالبة والمسيحيين ، فأصبح النفوذ السياسي للجيش وقواده وهؤلاء لم يحفل بهم أحد لضعة شأنهم وحقارة أصلهم وكرههم الشعب لوحشيتهم وظلمهم

٣ — ظهور أفراد من الطبقة الوسطى ممن أثروا عن طريق التجارة والصناعه وهؤلاء أخذوا يتطلعون بأبصارهم إلى مراتب السيادة والجاه ، و ينافسون ذوى النفوذ والسودد ،مما أدى إلى نزاع بين طبقات الشعب ، وهكذا كان النظام الاجتماعي يحمل بين طياته أسباب انحلاله : فالصانع كان يكره صاحب العمل والتجار والصناع كانوا يحقدون على الأمراء والكبراء ، والكل كانوا يمقتون القواد وبخاصة البربر من بينهم .

٤ — أصبح الدين عرضة لهجات المتهجمين ، ولم تفلح الوسائل التي لجأ اليها المنصور ضد الفلاسفة ، وازداد القائلون بوجوب اطلاق حرية الفكر، ممن درسوا الفلسفة اليونانية والعلوم والرياضة . وكثر البحث في النظم السياسية والعقائد

الدينية . وعبثا حاول الفقهاء أن يوفقوا بين المعتزلة والشيعة وأهل السنة . وازداد القائلون بالالحاد والزندقة ، وظهر فريق ينادي بتوحيد الأديان ومحو كل الفوارق والخلافات بين المذاهب والعقائد ، ويشككون فى معظمها ، ويهرفون بمالا يعرفون سلاحهم فى الجدل المغالطات المنطقية

تبلبلت الأفكار ، وتشعبت الآراء تشعبا كان لا محالة مفضيا الى الصراع والنزاع ، والفتنة والاضطراب وهذا ما كان قد تنبأ به المنصور قبل وفاته . وأصبحت قرطبة تموج كالبركان الذي آذن بالانفجار . وهذه الثورة الناجمة عن تطور اجتماعى ، هى الفرصة التى طالما تمناها أعداء بنى عامر ، لاسقاط دولتهم واقتلاع نفوذهم ، لما لجوا فيه من كبرياء وعتو بغضهم إلى قلوب سلالة الأمراء والنبلاء . وتمناها أنصار بيت عبد الرحمن الناصر ، لاعادة حقوق الخلافة وسلطانها إلى هشام . وتمناها الدهماء لسلب أموال الأغنياء . ونهب متاجر التجار

وفاة المظفر :

ولم يمتد الأجل بالمظفر حتى يشهد تلك الثورة اذ مات سنة ١٠٠٨ م ٣٩٩ ه وهو فى ريعان شبابه وعضاضة أهابة . وقد ذكر الأثير ج ٨ ص ٢٢٥ عن سبب وفاته ، أن أخاه عبد الرحمن سمه فى تفاحة شقها بسكين نصفين ، كان قد سم أحدهما . فناول أخاه النصف المسموم ، وأخذ هو الجانب الصحيح وأكله بحضرته ، فاطمأن المظفر ، وأكل مابيده منها فمات ، وهى فى الواقع دعوى لم يقم عليها أى دليل

عبد الرحمن المأمون :

تولى الحجابة بعد أخيه المظفر وكان مكروها من الفقهاء ، لأنه كان من أم

مسيحية بنت رجل يدعى سانكو ، ولذا سماه الفقهاء سانكول (سانكو الصغير) وزاد فى كراهية الشعب له سوء خلقه وادمانه الخمر واستهتاره فى معيشته . وتناقل الناس عنه أنه دس السم لأخيه المظفر فى تفاحة اقتسمها معه . ومهما يكن من الأمر فان سانكول كانت تنقصه المواهب والكياسة ، التى امتاز بهما المنصور والمظفر

مغامرة المأمون :

ومع هذا فقد سار المأمون قدما فى سبيل وعر ، ربأ المنصور والمظفر بنفسيهما عن المسير فيه . فقد كانا يحكمان ويسيطران ، ولكنهما تركا للخليفة الأموى ألقابه ورسومه . فلم يطمعا فى الخلافة ، ولو أن نوالها كان محببا الى نفس كل منهما . أما سانكول فقد تجرأ على الطموح الى ولاية العهد للخليفة . فاستشار ذوى النفوذ ، ومن بينهم القاضى ابن ذكوان ، والوزير ابن برد . ولما اطمأن الى تأييدهما ، طلب الى هشام الثانى أن يجعل اليه الخلافة من بعده ، فاضطرب هشام ، ولكنه أحجم أول الأمر . وما لبث أن استشار بعض الفقهاء ممن كانوا من صنائع ابن ذكوان ، فأشاروا عليه بالقبول . وكتب له العهد الوزير أبوحفص بن برد ، مما أحرج الصدور وأدى الى الانفجار . كل هذا ولم يمض على وفاة المظفر أكثر من شهر واحد

صيغة العهد :

ولأهمية صيغة العهد نثبتها هنا بنصها نقلا عن ابن خلدون :

« هذا ما عهد به هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامة ، وعاهد

الله عليه من نفسه خاصة ، وأعطى به صفقة يمينه ، بيعة تامة ، بعد أن أمعن فى النظر ، وأطال الاستخارة ، وأهمه ما جعل الله اليه من الامانة ، وعصب به من أمر المؤمنين ، واتقى حلول القدر بما لا يؤمن ، وخاف نزول القضاء بما لا يصرف وخشى ان هجم المحتوم ذلك عليه ، ونزل مقدوره به ، ولم يرفع لهذه الامة علما تأوى اليه وملجأ تنعطف عليه ، ان يكون يلقى ربه تبارك وتعالى مفرطا ساهيا عن اداء الحق اليه . ونقص عند ذلك من أحياء قريش وغيرها من يستحق ان يسند هذا الأمر اليه و يعول فى القيام به عليه ، ممن يستوجبه بدينه وأمانته ، وهديه وصيانته بعد اطراح الهوى ، والتحري للحق ، والزلفى إلى الله جل وعلا بما يرضيه . و بعد ان قطع الاواصر واسخط الاقارب ، فلم يجد احدا يوليه عهده و يفرض اليه الخلافة بعده لفضل نفسه وكرم شيمه وشرف مرتبته وعلو منصبه ، مع تقاه وعفافه ، ومع رفعته وحزمه أجدر من المأمون الغيب الناصح الجيب ، أبى المظفر عبد الرحمن بن المنصور ابى عامر محمد بن ابى عامر ، وفقه الله . إذ كان امير المؤمنين ايده الله تعالى قد ابتلاه واختبره ، وتطرق شأنه واعتبره ، فرآه مسارعا فى الخيرات سابقا فى الحلبات مستوليا على الغايات جامعا للمأثرات . ومن كان المنصور اباه والمظفر اخاه فلا غرو ان يبلغ من سبيل البر مداه ، و يحوى من خلال الخير ما حواه ، مع ان أمير المؤمنين أيده الله بما طالع من مكنون العلم ووعاه من مخزون الاثر ، يرى أن يكون ولى عهده القحطاني الذى حدث عنه عبدالله بن عمرو بن العاص وأبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« لا تقوم الساعة حتى يخرج من قحطان من يسوق الناس بعصاه »

فلما استوى الاختبار وتقابلت عنده فيه الآثار ، ولم يجد عنه مذهبا ولا إلى غيره معدلا ، خرج اليه من تدبير الأمور فى حياته ، وفرض اليه الخلافة بعد وفاته

قانعا راضيا مجتهدا ، وأمضى أمير المؤمنين هذا وأجازه وأنجزه وأنفذه ولم يشرط فيه مثنوية ولا خيارا وأعطى على الوفاء فى سره وجهره وقوله وفعله ، عهد الله وميثاقه وذمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وذمم الخلفاء الراشدين من آبائه ، وذمة نفسه ، أن لا يبدل ولا يغير ولا يحول ولا يزول . وأشهد الله على ذلك والملائكة وكفى بالله شهيدا . . وأشهد وهو جائز الامر ، ماضى القول والفعل بمحضر من ولى عهده المأمون أبى المظفر عبد الرحمن بن المنصور وفقه الله تعالى ، وقبوله ماقلده وألزمه نفسه ما التزمه ، وذلك فى شهر ربيع الاول سنة ٣٩٩ ، وكتب الوزراء والقضاة وسائر الناس بخطوط أيديهم ، وتسمى بعدها بولى العهد » .

الفصل الثالث

ثورة قرطبة وسقوط بنى عامر

وثوب الأمويين لاستعادة الملك

أختنق الشعب هـذا التهجم فثارت ثائرته . وتطلع الرعاع إلى نهب قصر الزاهرة ومابه من أموال ورياش ولـكنه ظل عاكفا على السكوت الذى يسبق العاصفه لان وجود الجيش المطيع للمأمون كان يفت فى عضده .

فلما رأى سانكول هذا السكون والهدوء خدعته مظاهره ، فتجهز لغزو ليون. وبدأ زحفه يوم الجمعة ١٤ يناير عام ١٠٠٩ م وعهد بادارة الحكومة فى غيبته إلى ابن عمه عبد الله بن عامر ، وتحصن الفونس الخامس فى رؤس الجبال ولم يشتبك مع سانكول فى موقعه ولما عصفت العواصف الثلجية وسد الثلج معابر الجبال . اضطر سانكول إلى الرجوع إلى طليطلة ، وهناك علم بنبأ الثورة وكان زعيم تلك الثورة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبدالرحمن الناصر وهو ابن ذلك الامير الذى ائتمر بالمظفر أول حكمه وكان مصيره القتل . وبفضل وفرة ماله وانضمام أمراء بنى أمية اليه وأنصارهم من اليمانيين والمضريين وتأييد حسن بن يحيى له ، جمع الامير محمد ٤٠٠ من الفرسان البواسل ، وانتقى ثلاثين من خيرتهم فهاجم بهم قصر الخليفة فى مساء الخميس ٢٥ فبراير عام ١٠٠٩ م ٤٠٠ هـ .

نجاح الثورة وولاية محمد بن هشام المهدى

اقتحم الفرسان أحد أبواب القصر وقتلوا الحراس ، وقتلوا صاحب الشرطة

وقاتلوا عبد الرحمن بن عامر وكان إذ ذاك بقية أتباع الامير محمد بن هشام يثيرون أهل قرطبة ولحقوا به فى القصر على رأس جماهير لا تحصى. فلما يئس الخليفة هشام الثانى من قدوم أية مساعدة تنازل عن الخلافة لمحمد بن هشام . فقبلها هذا واستدعى الفقهاء والكبراء وكتب صيغة التنازل فوقعها هشام المؤيد . وعين محمد عماله وسمى نفسه المهدى ، وأمر بالتجنيد فتقاطر الناس اليه من كل فج عميق ، حتى ترك النساك خلواتهم ، وأسرعوا إلى الانضواء تحت لوائه للقضاء ذلك المستهتر سانكول . وأمر المهدى وزيره بالاستيلاء على الزاهرة فسلمت اليه بلا مقاومة . وهكذا دالت دولة بنى عامر فى سحابة يوم . وفرح أهل قرطبة فرحا شديدا بهذا النصر الحاسم السريع، الذى تم دون اهراق دماء كثيرة وخرج الدهماء عن سيطرة القادة ، فهاجموا الزاهرة ونهبوها أربعة أيام ، واقتلعوا أبوابها وتركوها أطلالا دارسة، ومع هذا فقد وجد رجال المهدى محمد بن هشام فى خفاياها مليونا ونصف مليون من الدنانير الذهبية ومليونين ومائة ألف درهم وكشفوا بعدها مائتى ألف دينار أخرى . و بعد ذلك أشعلوا النيران فى القصر فذهب كأن لم يغن بالامس

قتل سانكول — عبد الرحمن المأمون

عزم سانكول على اخماد الثورة . ولكن جنده البربر انفضوا من حوله وتسللوا لواذا أثناء مسيره ولحقوا بقرطبة و بايعوا المهدى ورفض الباقون أن يجددوا البيعة لعبد الرحمن بحجة أنهم بايعوه من قبل ، فلا حاجة بهم إلى تجديد البيعة — فتوهم أن أنصاره فى قرطبة سيقومون معه عند وصوله ، وسينفض عن محمد بن هشام الكثير من أتباعه . ولكن أحلامه هذه تبددت عند وصوله ، إذ لم يجد

أحدا . فاضطر إلى التماس العفو من محمد بن هشام وقابل وزيره هشاما فقبل الأرض بين يديه ، وقبل حافر جواده . ولكن هذه المذلة لم تجده نفعا ، فقبض عليه وضربت عنقه ، وديست جثته تحت سنابك الخيل . ثم أمر المهدى بصلبها فصلبت ، وهكذا دالت دولة بنى عامر بعد أن حمى رجالها الاسلام فى الأندلس وردوا عنه عداته زهاء ثلث قرن من الزمان .